قراءة

د. أسعد غانم*

من تأليف سوزان ناتان

"الوجه الآخر لإسرائيل"

سوزان ناتان كاتبة إسرائيلية عاشت سنوات عدة في بريطانيا ثم عادت إلى اسرائيل واختارت العيش في مجتمع عربي فلسطيني، في مدينة طمرة الجليلية، وفي كتابها الذي صدر بالإنكليزية مؤخرا "الوجه الآخر لإسرائيل"، تتناول شتى أوجه العلاقة الشائكة بين أهل البلد الأصليين، الشعب الفلسطيني في الطرف الأول، والأكثرية اليهودية والدولة الإسرائيلية من الطرف الآخر. الكتاب أقرب إلى السرد الصحافي المؤسس على المشاهدة والتوثيق الانثربولوجي، فهو يعرض بغير تعقيد ابتلاء أهل الوطن الأصليين بأكثر من قرن من الاستيطان، شراء الأرض تارة ومصادرتها تارة أخرى والسعي إلى تغيير الجغرافيا والديمغرافيا بكد ونهم، وملاحقة أهل البلد الأصليين والتنكيل بهم من هدم البيوت إلى منعهم من الرجوع إلى قراهم وبيوتهم المدمرة وحتى استمرار جرائم الاحتلال يوميا وقتل الكبار والصغار وملاحقة المقاومين للاحتلال، وحتى بناء جدار الفصل العنصري على أراضي الضفة واستمرار الاستيطان وخصوصا في القدس وكل ذلك لمنع استقلال جزء من أهل البلد الأصليين في دولة مستقلة.

أدركت سوزان ناتان بحسها الباحث عن الحقيقة أن الوجه المعروض لإسرائيل في الغرب وخصوصا من قبل البعثات الديبلوماسية الإسرائيلية ومؤيدي إسرائيل من يهود وغيرهم، هذا الوجه يظهر حضاريا وديمقراطيا ومدافعا عن القيم والأخلاق ويقوم على رواية كاذبة وعرض مزور للحقيقة، وان الوجه الآخر لإسرائيل، الوجه الحقيقي يحمل كل آثار الجريمة وكمالها ويرتكب الجرائم ببطء واستمرارية بحيث يجعل حياة الآخرين (الفلسطينيين) في جحيم مستمر.

تقدم سوزان في كتابها تجربة قصيرة لكنها غنية ومليئة بالمعلومات الأساسية عن المجتمع، وأكاد اجزم بأن القصة المروية من قبل سوزان

* مدير دائرة الأبحاث في "مدار"، محاضر في العلوم السياسية بجامعة حيفا.

عرضت سوزان مخاوفها ومخاوف مجتمعها في تل أبيب من العيش في بلد عربي فلسطيني ، فهي تقدم عرضا مختصرا لأحاديث ولمحاولات قام بها جزء من معارفها في تل أبيب وغيرها لثنيها عن قرارها العيش بشكل دائم في طمرة الجليلية-الفلسطينية. منهم من هول صورة مصيرها كيهودية سوف ينكل بها في البلد العربي وربما تغتصب وتقتل أو تشوه وبذلك حاول ابتزازها مخاطبا مشاعرها ومجمل تاريخها كيهودية وكأنه يجب أن تحضر في هذه المناسبة كل التاريخ ومشاعر وأفكار الملاحقة. والنصف الآخر حاول مخاطبتها عقلانيا عن ضرورة الفصل وعن "الفرق" الثقافي وكأنه حاول إقناعها بمنطق الفصل الذي استعمل ويستعمل كأحد أدوات السيطرة والتحكم.

هي الأقرب إلى الواقع من بين كل ما كتب ودون حتى الآن. بدون تعقيدات الكتابة العلمية وبدون خلفية استشراقية مليئة بمشاعر الحب والكره تغوص سوزان في سرد تجربتها ولقائها مع الحياة منذ قررت أواخر ١٩٩٩ أن تهاجر إلى إسرائيل بصفتها يهودية "يحق" لها ذلك من غير التنازل عن مواطنتها في إنكلترا ومع تشجيع مادي ومعنوي كريم من قبل الدولة اليهودية، مرورا بعملها كمجندة أموال في مشروع مهباخ (الذي يسعى إلى أحداث تغييرات اجتماعية في إسرائيل)، وسكنها في تل ابيب ومن ثم انتقالها إلى طمرة. وهي تسعى إلى سرد الواقع كما رأته بلغة بسيطة وبواقعية رائعة مع الحفاظ على شخصيتها كجزء أساسي من عملية السرد وتمرير الأحداث إلى القارىء وكأنه يجلس معها على قهوة الصباح او يسير معها في شوارع طمرة.

تعرض المؤلفة في الكتاب سبع صور مركزية أرادت أن تكون في مركز مؤلفها هذا، وقامت بهذا العرض في الفصول السبعة المكونة للكتاب. في الفصل الأول عرضت سوزان مخاوفها ومخاوف مجتمعها في تل أبيب من العيش في بلد عربي فلسطيني ، فهي تقدم عرضا مختصرا لأحاديث ولمحاولات قام بها جزء من معارفها في تل أبيب وغيرها لثنيها عن قرارها العيش بشكل دائم في طمرة الجليلية-الفلسطينية. منهم من هول صورة مصيرها كيهودية سوف ينكل بها في البلد العربي وربما تغتصب وتقتل أو تشوه وبذلك حاول ابتزازها مخاطبا مشاعرها ومجمل تاريخها كيهودية وكأنه يجب أن تحضر في هذه المناسبة كل التاريخ ومشاعر وأفكار الملاحقة. والنصف الآخر حاول مخاطبتها عقلانيا عن ضرورة الفصل وعن "الفرق" الثقافي وكأنه حاول إقناعها بمنطق الفصل الذي استعمل ويستعمل كأحد أدوات السيطرة والتحكم. ولكنها تروي بعفوية وسلاسة وبشكل مستقيم عن تجربتها الرائعة والمثالية (تقريبا) – الاعتيادية مع العائلة التي أجرتها بيتها لتسكن به في طمرة، فهي تنقل تفاصيل اللقاء وتروي من خلال ذلك حال عائلة عربية متوسطة الحال لكنها عانت وتعاني بسبب الماضي وتداعياته في الحاضر.

تكاد سوزان أن تصف بدقة أحوال معيشتنا، نحن العرب الفلسطينيين في قرانا ومدننا وبيوتنا حتى أنها ذكرتني شخصيا بوقائع حياتنا أنا وأهل بيتي، خلال سنوات مضت. ونقلت إلى القارىء تفاصيل لا يدركها إلا من عايشها سنوات طويلة، وبذلك كتبت سوزان بأنها تنظر الى الواقع بعين ناقدة مع احترامها الكامل للتفاصيل الدقيقة للحياة الاجتماعية والعائلية في مجتمعنا، ذلك لم يمنعها من النظر إلى بعض جوانب حياتنا بعين منتقدة يستشعر منها القارىء رغبة الكاتبة ومن حولها من أهل بيتها في طمرة بأن تتغير الأحوال إلى الأفضل وخصوصا في الجوانب السلبية والمأساوية لحياتنا في البناء الاجتماعي– الثقافي الموروث، لكنها وعلى الطرف الآخر من فهمها لواقعنا تصف العلاقات الاجتماعية الايجابية بمجال ملفت للانتباه وبدعوة للحفاظ على ذلك وخصوصا فيما يتعلق بعلاقات الجيرة،وعلاقة الآباء والأبناء، والأهل بالضيف الوافد، حتى أنها تكاد تنتزع الدمعة من القارىء عندما تصف اهتمام أهل البيت المضيف بحالها وبعكس الأهوال التي صورها لها من دعوها إلى ترك فكرة الانتقال إلى طمرة "والعيش مع العرب".

في الفصل الثاني من الكتاب تصف سوزان رغبتها في الهجرة إلى وطن اليهود وايمانها السابق بأنه الظاهرة الإسرائيلية هي من أرقى وأنظف وأكثر الظواهر عفة وأخلاقا، لتصطدم في واقع الحياة والآلام

التي خلفتها أحلام الصهيونية وممارساتها على ارض الواقع، لتنتقل الكاتبة جراء ذلك إلى الطرف الناقد، الواعي الذي يرفض النظر إلى الواقع الأليم ووصفه "بالحليب والعسل" فهي تعرف من خلال لقائها مع ضحايا الصهيونية وممارساتها بأن ما حصل على ارض الواقع بعيد جدا عن الأخلاق والرقي والنظافة.

بعد الفصل الثاني تتابع الفصول لتصف جوانب مختلفة من جوانب المعاناة الفلسطينية جراء الجرائم السابقة والمستمرة لإسرائيل، ففي الفصل الثالث تصف المؤلفة بدقة متناهية وضع الفلسطينيين في إسرائيل واضمحلال الديمقراطية الإسرائيلية عندما يصل الأمر إلى حقوق الفلسطينيين أصحاب المواطنة الإسرائيلية. حتى لتصف بدقة حالة انعدام المواطنة وتحرك الدولة اليهودية للحفاظ على التفوق العرقي لليهود بأي ثمن، مع الإصرار على أن الدولة اليهودية الديمقراطية هي جزء من عائلة الدول الديمقراطية المتنورة وهذا ما تاه فيه الكثيرون من المتمرسين في دراسة إسرائيل من يهود وعرب وأجانب.

في الفصل الرابع تعرج الكاتبة إلى وصف الجرائم المبرمجة لإسرائيل في الضفة والقطاع وتصف التطورات الأخيرة والجرائم الحاصلة يوميا لتقدم صورة شاملة عن "الاحتلال المتنور" الذي "يجتهد" من اجل السلام مخلفا وراء أكاذيبه باقات من القتل والتنكيل والفصل العنصري ومعاناة الواقفين على "المحسوم" والباقين في بيوتهم من الناس العاديين.

في الفصلين الخامس والسادس تعرض المؤلفة لحالة تعامل المجتمع اليهودي مع الاحتلال من جهة، ومواطني الدرجة الثانية من الفلسطينيين من الجهة الأخرى. وتعرض لحالة الانحلال في اليسار الإسرائيلي وهزيمته السياسية والأخلاقية وخصوصا إلى تبنيه لخطاب اليمين ومشاريعه بعكس ما هو متوقع، وخصوصا لتبنيه لأنماط تفكير وممارسة يمينية مع إصراره على الشكل التقدمي والديمقراطي خارجيا، وخصوصا إصراره على الدولة اليهودية كمنقذ ومخلص أمام تحديات المستقبل واستعداده باسم الديمقراطية والقانون على إرسال أبنائه كجنود احتلال ليقوموا بدورهم بتنفيذ الأوامر (وكذلك باسم القانون) وبالتالي الحصول على مجتمع معسكر يقوم بإجراء سياسات معتدية عنصرية ولا تمت إلى الأخلاق والعمل الإنساني بصلة، مع الإصرار على أن الإنسان وحقوق الإنسان هي في جوهر الخطاب وخصوصا لدى من يدعون بأنهم يسار وديمقراطيون.

أما في الفصل السابع والأخير فتقدم المؤلفة بعض الاستنتاجات والخلاصات المعتمدة على الصورة المقدمة خلال فصول الكتاب

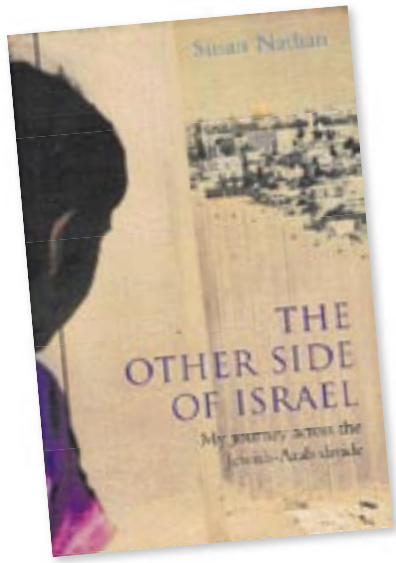

السابقة، فهي تعي الآن أكثر من قبل، بأن الممارسات العملية للصهيونية مؤسسة على حفظ التفوق العرقي، ولأجل ذلك فإن الدولة اليهودية ورجالاتها مستعدون لاتخاذ أي إجراء قمعي لا إنساني مهما كان كبره وعمقه، وبالمقابل فإنها ترى جوانب عجزنا وخصوصا عدم استطاعة مجتمعنا الفلسطيني تطوير رؤية مستقبلية واضحة تكون مؤسسة لجوهر نضاله المستقبلي، وهي بذلك تسبق الكثيرين من الناس العاديين وحتى القادة الجالسين على الكراسي لكن عاجزين عن الاعتراف بعجزهم وخيبتهم في بناء تصور واقع والسعي إلى تنفيذه على ارض الواقع على أساس أن المهمة الأساسية هي ليست فقط خارجية مقابل الدولة بل هي كذلك، وربما بالأساس داخلية، يجب أن نعمل على صون الوحدة والبرنامج المشترك داخليا حتى نستطيع الخروج مستقبلا إلى مواجهة التفوق العرقي اليهودي. وذلك بالأساس من خلال طرح تحدي الدولة الديمقراطية المتساوية الرافضة للتقسيمات بل المتعاملة مع الواقع الواحد والحل الواحد للأشكال التاريخي الحاصل بعد احتلال ونكبة ١٩٤٨ واحتلالات ونكبات أتت بعد ذلك.